

القرآن أستاذ محمد نظرة فى عوامل تكوينه الأدبى

يتحدثون عن المؤثرات المهمة فى تكوين الأديب ، إذا أرادوا أن يحللوا حياته الأدبية ، فيبحثون عن مصادر إلهامه ، وعوامل إبداعه ، ويرجعون ذلك إلى بواعث داخلية من استعداده الخاص ، وتكوينه الذاتى ، وخارجية من تأثير البيئة فى اتجاهه ومنحاه . ولا بد لنا أن نبحث عن هذه المؤثرات فى مجال يتحدث عن أفصح البلغاء .

لقد اختار الله محمداً ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ؛ ليعجزهم بفصاحة القرآن ، ووكل إليه أن يفسر كتابه ، ويبين وحيه حين قال فى محكم آياته : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(١) ، وحين قال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾^(٢) ، وحين قال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٣) .. إلى غير ذلك من الآيات التى تنطق بمهمة الرسول فى الإبلاغ والتبيين والهداية ، فإذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتصاولون بالبيان ، ويتقارعون بالفصاحة ، فلا بد أن يكون الذى يتولى هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) سورة مريم : ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٦٤ .

والمنطق ، أشدهم عارضة وأقواهم حجة . ولا بد أن يكون الذى اختاره لهذه الهداية ، قد مكن له فى منبته وفى نفسه من عوامل السداد والتوفيق ، ما يحرز به الفلج الحاسم فى ملأ ليد أنبياء .

أجل .. لقد مكن الله له فى منبته ونفسه بما بهر به العقول إقناعاً وإفحاماً ، ولم يكن محض الصدفة العابرة أن يختاره الله من بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، فكل هؤلاء الأجداد قد توارثوا البلاغة وكانوا رؤساء فى أقوامهم يقولون فيُسمعون ، ويُسألون فيجيبون ، وكانت الرئاسة القبلية فى الجزيرة العربية بعامة ومكة بخاصة ، تركز على عوامل بارزة من الشجاعة والكرم والبيان ، فكل رئيس فى قومه لا يحتل مكان الصدارة إلا إذا سال فناؤه بالخير للمعتفين ، وجروء قلبه بالبأس والشجاعة غداة الروع ، وعرف كيف يفصل فى المآزق المشتبهة بالقول الجزل . هذه هى عناصر الرئاسة العربية كما اتضحت فى أسرة (كعب بن لؤى) . وقد بدأنا الحديث به لأن كتب العهد الجاهلى قد تحدثت كثيراً^(١) عن زعامته ، واجتماع العرب إليه فى كل جمعة ، ليأمرهم بالطاعة والكف عن الشر ، وسمى هذا اليوم يوم الرحمة أو يوم العروبة^(٢) فكان يوم عيد قومى لاجتماع القبيلة ، ويوم عيد دينى لزيارة البيت ، ولا يتم ذلك إلا لعظيم يأتمر بأمره العرب ، وقد حافظوا على تاريخ وفاته ، فأرخوا به حتى كان عام الفيل فمحا من قبله من ذكريات المجد ، ثم جاء حفيده (قصى بن كلاب) ، فأخذ حيازة البيت الحرام فى يده ، وأنشأ دار الندوة بمكة فكان أول من فطن إلى الحكم الشورى من العرب ، ويروى الثقات أنه هو الذى أسس مدينة مكة ، وقسمها بين قریش وخزاعة ، وجمع شملهم ولمّ عزوتهم ، ولم تكن مكة قبل قصى سوى معبد بدوى قائم فى الصحراء فصنع بها قصى أكثر مما صنع (تيزيو) لأثينا و(رومولو) لروما ،

(١) « بلوغ الأرب » ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(٢) « ثورة الإسلام » ، ص ٢٤٠ .

و(أبو جعفر المنصور) لبغداد ، وكان خطيباً لا يبارى تنوقلت على بعد الأمد بعض أحاديثه ، حتى إذا مات حزنت عليه قريش حزناً لا يزال يتردد صده في الشعر العربي القديم ، وقد سمي مجمعا ؛ إذ جمع الله به القبائل من فهر ، فنزلوا بطحاء مكة في الشعاب ورءوس الجبال ، ثم جدد بناء الكعبة إذ تأكلت أحجارها وكادت تصير إلى أنقاض ، وجاء ولده (عبد مناف) فاحتل مكان أبيه في رئاسة دار الندوة ، وكان حليماً لا ينطق إلا بما يأمر بالمعروف من صلة الرحم وذم الحروب والغارات ، أما ولده (هاشم) فقد ملك بعد أبيه الرفادة والسقاية ، وكان يصنع الطعام لحجاج البيت ، وكان إذا أهل هلال ذي الحجة من كل عام ، قام إلى الكعبة فخطب الناس وحضهم على إكرام الحجاج ، وأعلن أنه فتح بيته للوافدين ، وسارت له في ذلك أقوال ترونها كتب الأدب ، وهو بعد والد عبد المطلب الجد الأول للرسول ، وما حديث عبد المطلب في رئاسته وفصاحته ببعيد .

أسهنا بعض الشيء في بيان السمات المتواترة في رجال النسب المحمدي ، لنعلن أن ما اشتهروا به من الفصاحة والمجادة قد خلص إلى سليلهم العظيم ، فكان من عوامل سيادته ، ولنعفى على ما يلوكه حقدة المستشرقين من غمز ذني لأجداد محمد ، فقد حلا لبعضهم أن يكيل المدح جزافاً لبني شمس لينتقص بني عبد مناف ، وكل أدلته ما تناقلته الكتب من كثرة مال بني عبد شمس . ولو عرف هؤلاء أن حقوق السيادة ومغارم الفضيلة ، هي التي جعلت مال بني عبد مناف نهب الراجين ومنال الطامعين لعرفوا أنهم يمدحونهم بما يظنونهم موضع التقصير .

ولم تكن قلة المال - ذات يوم - مكمّن الغميلة في شرف أو رئاسة لدى الأعاجم ، ممن ينكرون عامدين منازع الفتوة والمروءة لدى المساميح من أبناء عبد مناف . ولك أن تعجب حين تجد المستشرق الكاثوليكي (لامنس) ، يكتب تاريخاً مسهباً (ليزيد بن معاوية) . لينتقص (الحسين بن علي) ثم يعلو إلى (معاوية) مادحاً مباهياً لينتقص (علي بن أبي طالب) فإذا تحدث عن أبي سفيان بالغ في

مآثره متوهماً أنه يعد له برسول الله ، فإذا بلغ (حرب بن أمية) فضله ورفعاه على (عبد المطلب) . وأنت تسأل فيم هذا الهيام العنيف ببني أمية لدى القس الكاثوليكي العجيب ، فلا تجده غير التنفيس قليلاً عما يضطرم في حناياه من بغض لنبي الإسلام .

لقد ورث محمد الفصاحة فيما ورث من سمات آبائه ، وقد مكن الله له من أفانين البلاغة والسداد والإفحام ، بما استطاع أن يبهر به قومًا قال عنهم (الجاحظ) واصفًا بلاغتهم المبدعة :

« وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه - العربي - إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حتى حين يمتح على رأس بئر أو يجدو بيعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع حرب ، فما هو إلا أن يصرف وجهه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني إرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انشياً لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطبائهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى علم غيره واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب وإن شيئاً الذي في أيدينا جزء منه لبالقادر الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعد التراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان . والعالم بما سيكون »^(١) .

لقد أحسن شيخ أدباء العربية في حديثه عن فصاحة العرب ؛ إذ وصف الأمر كما كان في تدفق بيان وخلوص عبارة ، وإن من يوكل إليه إقناع من أنصف من

هؤلاء وإفحام من اتبع هواه دون إنصاف ، لسيد بلغائهم وأفصح رجالهم دون نزاع ، ولم يقل رسول الله ﷺ : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد مباهاة بالفصاحة ومفاخرة بالبيان ، فما كان أبعداه عليه الصلاة والسلام عن المفاخرة والمباهاة ، ولكنه كان يعبر عن حقيقة خالصة ويحيب عن سؤال من سألته كيف يخاطب رجال القبائل على اختلاف لهجاتهم ، وتنوع ألفاظهم ، واختلاف مدلولاتها بين القبيلة والقبيلة ؟ كيف يخاطب هؤلاء بما يعجز عنه - عادة - القرشي الناشئ في مكة والمتنقل إلى المدينة . دون أن يتعمق بطون القبائل ، قبيلة قبيلة حتى يلم بعشرات اللهجات المتضاربة ومئات الألفاظ المغلقة ، فيجيبه الرسول عن الحقيقة الماثلة دون تزييد ، حين يعلن أنه أفصح العرب ، ولد في قريش ونشأ في بنى سعد .

هذه النشأة القوية في ربوع الفصاحة ، ومسارح البلاغة ، كانت بعض عوامل الإعداد الإلهي لنبية الكريم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وإذا كان عز وجل قد قدر عليه أن ينشأ هذه النشأة ليتمكن لسانه من الأداء المحكم عما يلهم خاطره ويحيش بنفسه من المعاني ، فقد قدر عز وجل أن يحيا حياة خاصة تساعد نفسه على الاتساع والعمق ، فيشعر مشاعر الدقيق الحس ، ويفكر تفكير المتفتح اليقظ ، ويرى كل عابرة وطائرة رؤية المتأمل المحيط ، لتكون تجارب حياته ومشاهد بيئته ، وصور الكون أمامه كتاباً مفتوحاً ، يقرأ في سطور ما لا يقرأ البسطاء من ذوى النظر المحدود . لذلك .. أورثه الله الظمأ الحار إلى المعرفة ، ومنحه من لدن شب عن الطوق هذا التساؤل المتطلع عن ألغاز الكون ومعمياته ، وأوسع له من ذات عقله ليفكر فيطيل التفكير ، ويتدبر فيمعن التدبر ، كما أوسع له من ذات نفسه ليحس الخلجة السانحة ، ويتأمل الومضة البارقة ويتسمع إلى أخفت أحاسيس الضمائر والمكنونات . أما تاريخ حياته يوماً فيوماً فمما ساعد على تقوية انتباهه ودقة شعوره ، وعمق حساسيته مساعدة كان من أثرها أن أصبح الداعية المختار إلى نشر دين الله

في الأرض ، وأن يكون وحده المعنى بقول الله عز وجل : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿١﴾ ،
وصدق الله .

لم يكد يتخلق ﷺ في بطن أمه جنينًا ، يقتات قطرات الدم الخالص ، حتى فوجئت الأم الرءوم بما أثار شجونها من موت زوجها الحبيب ؛ فوجعت العروس الشابة وجومًا طبعها بطابع الحزن المرير ، وأخذ الجنين الحى فى أحشاء أمه يقتات لبنًا حزينًا يتحدر من نفس تحمل كوامن الشجن ، وتنطوى على أقصى ما تنطوى عليه عروس حسناء فجعت فى مشرق أملها ، وهى تتحسس بين أحشائها فلذة منه ، تضطرب مؤذنة بوجودها المتوثب إلى مشرق الضياء . ثم أهّل الطفل المنتظر ليحيا فى كفالة جده ، لا فى رعاية أبيه ، وكانت مدة الحمل الحزينة ، قد تركت طابعها لا محالة فيما بعد فى نفس الطفل ، فلم تكن حياته الطويلة مجالاً للطرب والنشوة ، إنما كان ما وصفه أبو هالة متواصل الأحزان دائم التفكير ، ليست له راحة ، طويل السكوت . وقد كان فى صغره موضع العجب من عارفيه ، فإن مرضعته العطوف (حليمة السعدية) تقول عنه : إنه كان يقلق بالليل ، فلا ييكى ولا يصرخ ، ولكن سمة الضجر تطبع وجهه فتخرج به من الخيمة ، فيتطلع فى سرور إلى نجوم الليل ، وإذا ذاك ينفرج ضيقه ، فإذا شبت عيناه من نور السماء أطبقها وأخذ الكرى بمعاقد أجفانه (٢) .

نشأ محمد فى بنى سعد ما نشأ ، ثم عاد الطفل المتأمل إلى أمه بعد الرضاع ، فخرجت به من مكة إلى زيارة قبر أبيه بالمدينة ، وبلغ من حساسيتها أنها لم تخبره - وهو غض نضير - بمكان القبر كيلا تثير تساؤله ، إنما تسللت إليه منفردة ، فذرفت من دموعها ، ثم كرت أدراجها إلى مكة والمرض يهداها هداً ، حتى إذا كانت فى

(١) سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) « محمد رسول الله » ، ص ٧٤ .

الطريق بالأبواء لفظت أنفاسها ، وتركت الصغير في السادسة من عمره مع جاريتها (أم أيمن) كي تسلم اليتيم إلى جده (عبد المطلب) . أى صدمة تحملها الطفل حين فتح عينيه فوجد أمه تفارقه قسراً التوضع في لحد بالأبواء . لم ينس الرسول هذا المشهد طيلة حياته ، فظل يراوده بين الفينة والفينة ، حتى إذا خرج في عهده الأخير إلى الحديبية ناوياً دخول مكة ، تعمد النزول بالأبواء ، فوقف على قبر أمه وبكى ، فبكى لبكائه المسلمون . هذا الحزن الذي طاف باليتيم تجدد في حياته مرات كثيرة ، تجدد حين فقد لعهد قريب جده ، ثم تجدد حين رأى الدنيا تحيطه بغرائب المنكرات ، من إثارة للحروب ، وشن للغارات ، وعسف بالضعيف ، واعتزاز بعصبة الجاهلية ، ونزقها الأرعن ، فكان دائماً يطيل التفكير فيما يرى ويسمع ، ويرى أن الحياة في حاجة إلى إصلاح وتوجيه .

على أن هذه النشأة الجادة الحزينة ، جعلته يفكر تفكير الرجل المحنك وهو شاب يافع ، إذ أنس من نفسه انصرافاً عن دواعي اللهو وبواعث الطرب ، تقوم الأعراس بمكة ويخف الشباب أرسالاً إلى مسارح اللهو يصاحبون القيان ، ويستمعون الألمان ، ويشاركون في العزف والرقص والشراب ، ومحمد عزوف عما ينشط له اللذات ، لا يحب أن يشارك في اللهو ، ويراه عبثاً طائلاً لا يليق بمفكر ملهم مثله ، وقد حدثه اللذات عما تمثله الأفراح والأعراس من مغريات اللهو والطرب ، وطال الحديث مغرياً دائماً ؛ فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يذهب ذات مرة إلى مشاهدة ما يلهم به اللذات ، ولم يكد يأخذ مكانه حتى أخذه النوم ، فما أيقظه إلا وهج الشمس ، يقول المؤرخون : إنها معجزة ، وأقول مستعيناً ببسائط علم النفس : إن النوم كان حيلة لا شعورية تخلص بها محمد مما يكره ، لأنه ذهب إلى العرس بعد أخذ ورد من بعض رفاقه ، فحين وجد نفسه في المكان ، وهو في أطوائه غير مقتنع بما يرى من المناكر والملاهي ، تغلبت داعية الباطن على وعيه المتيقظ ، فكان النوم حيلة لا شعورية انتصر بها الضمير المستكن . وقيل في بعض الروايات :

إن محمدًا ذهب إلى العرس في شبابه مرتين ، فكان النوم هو ستارة الأمان ، والتعليل واحد في موقفين متحدين .

هذا العزوف المشيخ عن الملاهى ما خطبه ؟ لابد أنه كان يسأل نفسه فيطيل السؤال ، يسأل نفسه عن ضرورة القيام بإصلاح ينجى الناس من الشرور والآفات . ليس الأمر أمر عرس وهو ، ولكنه أمر الحياة بما يصطخب فيها من آثام . ما هذه الخمور التى تراق في كل مكان ، حتى إذا شربها العاقل عاد وحشًا هائجًا يقتل ويذبح ويعيث في الأرض بالفساد . ما هذه الغارات التى تعبًا فيها القوى وتكتل الجهود لينهب ملأً ملأً . تكون القبيلة آمنة في خيامها ترعى الأم طفلها ، والكبير صغيره ، والصحيح مريضه ، ثم تصيح الصائحة فإذا خيل تغير ، وسيوف تشع ، ورماح تطعن ، ثم إذا الدماء سائلة ، والشباب صرعى ، والنساء أسرى ، والشيوخ والأطفال بلا مأوى . ما هذه الأوثان التى يعبدها الناس فى الكعبة ، إنها حجارة صماء ، صنعت بيد صانع فكيف تصير أربابًا تدير الكون وتسأل الخير وتدفع الشر ، وكيف يعبدها العقلاء وقد صنعوها بأيديهم ، ولو هم أحدهم لاستطاع أن يكسرها بفأسه فيجعلها حطامًا تذروه الرياح . أهى مع هذه المهانة آلهة خلقت الأرض والسماء ، وملك الزرع والضرع والماء . من يصدق هذا ؟!

منافذ للتفكير كثيرة اتسع لها جنان هذا المتأمل الصامت . وقد بدأ بنفسه ، فأصلحها هداية من الله ، واستجابة لهوائفه الذاتية ، فلم يلعب ميسرًا ، ولم يشرب خمرًا ، ولم يسجد لوثن ، وكان مثال الأمانة والنزاهة ؛ حتى عرف بين الناس جميعًا بالصادق الأمين . ولكن هداية النفس وحدها لا تكفى ، بل لابد من هداية الناس . وكيف . دون ذلك أهوال .

كانت الأشعار الأدبية ترن في مكة ، وتتجاوب بها أرجاء عكاظ ، ويسمر بها العرب فى أنديتهم راوين مباهين . ومحمد البليغ المبين لا يعيرها سمعه ، ولا يهش إلى خلابتها الرنانة ، وغزلها الرائق ، وحماستها المتأججة ، ولماذا ؟ إنها لا تهدف إلى

غاية ، ولا ترسم طريقًا خيراً ، ففيم الاهتمام بها في ملائ فاسد يعكف على الأباطيل ، وكانت الخطب المطيلة يرمى بها المقاول من البلغاء ، وقد تنكبوا القنا واعتجروا العمام ، وشدوا الأوساط وأرخوا عليها العباءات .

ومحمد البليغ المبين يشيح عنها فلا يسمع ، ولا يستعيد . ففيم الاهتمام بها وهي تدعو إلى العصبية ، وتوقظ الفتنة وتتخذ سلاح الحروب . فكل متشدد لا يعنى بالحق ، ولا يلتزم الصدق ولا ينشد الإصلاح ، وإنما يرضى قومه ويتبع هواه .

لا شيء من ذلك يستهوى هذا المفكر الصامت . إنما الذي استهواه وظل يذكره حتى آخر سنى حياته ، خطيب من إباد وفد إلى عكاظ ، يحمله جمل أورك ، فتجمع حوله الملاء ، ورأى محمد في سماته النبيلة ما جذبه إلى الاستماع إليه ، فأنصت ثم أنصت ، فإذا به يسمع ، وإذا القائل (قس بن ساعدة) يحذر الناس ببعض ما يجيش في صدر الشاب المتأمل ، ويضرب الأمثلة بمشاهد الكون فيصيح :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، إذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجرأة ، إن في السماء خيراً . وإن في الأرض لعبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، يقسم (قس) بالله قسماً لا إثم فيه ، أن الله ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً »^(١) .

حديث شائق ، يسمعه النبي الشاب فيأخذ بمجامع نفسه . ويظل يتذكر صاحبه ، حتى يجيء إليه وفد عبد القيس بالمدينة ، فيسألهم عن (قس بن ساعدة) ، فيجيبونه فيتذكر موقفه في عكاظ ثم يقول عنه : « يرحم الله قساً . إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »^(٢) .

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٢) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٣٥ .

وكانت الاجتماعات السياسية والحربية والدينية ، تعقد في دار الندوة وغيرها ، وتأتى أنباؤها إلى من لقبوه بالصادق الأمين ، فلا يسرع إلى شهودها ، ولو فعل لأخذ مكانه في صدارة بنى هاشم ، أوسط أهل مكة حسباً وأشرفهم مكاناً ، ولكنه يستمع إلى أنبائها فيشيخ ، ويدعى لشهودها فيحجم ، وكأنه يتساءل ما يفعل القوم في هذه الاجتماعات ، غير أن يشربوا الخمر ويلعبوا الميسر ويقتسموا الأزام . ثم يخرجوا إلى صفقات الربا ، وغزوات السلب ، وأوكار البغاء ، وعبادة الأصنام .

وفي يوم يأتيه ، أن حلفاً عقد في دار (عبد الله بن جدعان) يسمى : حلف الفضول ، يدعو لنصرة الضعيف ، وإحقاق الحق ، فيسرع إلى دار (ابن جدعان) في شغف ويمد يده مع المجتمعين قياماً في شهر حرام ، يتعاهدون على ألا يظلم بمكة غريب ، ولا قريب ، ولا حر ، ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه فيكونوا جميعاً مع المظلوم على الظالم شريفاً كان أم وضيعاً ، أو يبلغوا في ذلك عذراً ثم عليهم ألا يتركوا لأحد عند أحد فضلاً حتى يأخذه متعاهدين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى التآسي في المعاش ، والتساهم بالمال ^(١) . ما هذا ؟ إنها الأغراض التي ينشدها ، والتي تتحالجها وحيداً حين يخلو إلى هواتفه ، فليحرص عليها مع الحريصين ، وقد مضت الأيام وقام بعبء الرسالة ، فحقق هذه الأغراض صادعاً بوحى ربه ، ولكن اجتماع حلف الفضول لم يبرح ذاكرته ، فهو يتحدث عنه بالمدينة قائلاً لصحابته : « لقد شهدت في دار (عبد الله بن جدعان) حلفاً ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » .

هذه بعض هواتف الشاب الصامت العزوف تراوده متقطعة بين الفينة والفينة ، وقد ينجو منها أمداً طويلاً مشغلاً بالتجارة ، أو ناهضاً بأعباء المنزل والزوجة والولد ، ولكنها تعود وتلح عليه ، وتلحظ عليه خديجة زوجته أم المؤمنين ما يعترية من الصمت المفاجئ والإطراق المتصل ، فتتساءل في نفسها : فيم إطراق هذا

(١) « بلوغ الأرب » ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

الإنسان النبيل الشهم ، إنه لتنظيف كل النظافة في مسلكه ، يقرى الضيف ، ويرعى الكل ، ويحمى الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، وإنه لفي سعة من المال ، ورفاهة من العيش فقيم الإطراق الطويل ، وعلام الصمت والاعتزال . وإن اعتقادها الراسخ في همامة نفسه وسمو مثله ليحدثها بشيء عجيب يوشك أن يحدث ، أو ليس (ميسرة) قد حدثها بمعجزة الغمامة ، وتلك لن تكون لإنسان عادى يأكل ويشرب ويغرق في هموم الأكل والشراب ، غير متطلع إلى أفق أعلى تشرق فيه لوامع الحق والعدل والإحسان . لقد تحققها جسها الصامت ؛ فقد بدأ الزوج يواصل الاعتزال نازحاً عنها إلى غار حراء .

قد يظن ظان أن الذي نكتبه أدب متخيل لا حق واقع ، والحقيقة : أن مهمة الناقد أن يبحث الظواهر الغربية في حياة الأديب ، متلمساً تحليلها المعقول ، والنبى ﷺ كان يطيل التفكير والتأمل ، فلا بد من علة واضحة لذلك ، وكان ينأى مشيحاً عن أماكن اللهو والريب ، فلا بد لذلك من سبب ؟ وكان لا يرحب بشعر الجاهلية في الحروب ، والحماسة والغزل والمهجاء ، ولا بخطبها في الثأر والاعتزاز بالعصية . وهى تحيط به عن شمال ويمين ، إنما يرحب بأنموذج معين من الخطب جاء على لسان قس . وباجتماع منصف قام به حلف الفضول لدرء المظالم .. لن يفعل ذلك إنسان خواء لا يفكر في شيء ، بل لابد وراءه من نفس ذات عالية ، ومنازع رفيعة هيأها البارئ المصور لحمل رسالة السماء . ثم شاء لها أن تعتزل ، وتخلو قبل أن يضىء لها القرآن طريقها المشتبه ، فقيم كانت تفكر أثناء الاعتزال ؟ وكيف استطاع القرآن أن يجيب عن أسئلتها الغامضة ، فيكون لها بإجابته الشافية أكبر أستاذ ؟

إن الجبال العارية الجرد التى تحيط بمكة ليست مما يملأ العين جمالاً وبهجة ، فليست لها سفوح تزهر بالخضرة ، ولا تتوجهها الثلوج أو تكسوها الأشجار ، وهى فى أتون المهجير تصلى ناراً حامية تحيلها جمرة حمراء ، فإذا لفها الليل بظلامه بدت قائمة دهماء ، وكأنها تسربت بأثواب الحداد فى غير الليالى القمرى . إلى هذه القمم

الموحشة كان يسعى محمد بين الدروب والأزقة بمكة ، ليجلس في غار منها متأملاً متعبداً ، يفكر فيها هياً الله نفسه له من عوالم الحق والخير والمعروف . كان يجد بعض العزاء في أشعة الكواكب ، تنحدر برفق إلى مخدعه في بعض الليالي ؛ فتؤنس وحشته وتسامر وحدته ، فإذا أطلق لعينه أن تمتد وراء الجبال شاهد بساطاً من الرمل تصفحه الريح بسياطها الهوج ، فينتفض سياجاً هائجاً من الذر ثم يتبدد هباء .. إن بعض الذين كتبوا السيرة المطهرة من كتاب الغرب - منصفين ومتحاملين - قد تصوروا مكة ذات حدائق ، وبساتين ، وجعلوا جبالها نمطاً أوروبياً تتوجه الثلوج آناً وتحوك له الطبيعة أزهى الثياب من ريجان وأزاهير ، أنا آخر ، وأخذوا يعللون رحلة محمد إلى الغار ، كما يعللون مواقف (لامتري وجيته وهو جو وابن خفاجة) من طبيعة أوروبا ، وقد فاتهم شيء كبير مهم جداً هو الفرق الهائل بين مواقف الشعراء من عرب ومن عجم ومن الطبيعة ، وموقف سيد الأنبياء ، هؤلاء يقصدون إلى قمم الجبال ومعارج الأنهار ، وأبسطة الصحراء ليجدوا الأنس البصرى ، والراحة الذاتية فيما يشهدون من مساح ، وليجعلوا الطبيعة بغاباتها وأشجارها وأزهارها منظرًا خلفيًا لمشهد شعري في قصيدة غزلية ، أو ليجعلوها مسرحاً أنيقاً لقصة عاطفية . ما إلى هذا كان يذهب محمد حتى يقاس بسواه ، إنه كان ينظر إلى الطبيعة ليتساءل عمن صور الطبيعة : هذه النجوم ، هذا الجبل ، هذا الليل ، هذا النهار ، كل ذلك رائع مهيب جليل . فمن أوجد هذه الروعة ؟ أخلقت من غير شيء ! أتمخضت عنها المصادفة . أيعقل أن توجدها أصنام لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً .. وإن الوحدة الخالية لما يساعد النبي الموعود على اجتلاء غوامضه ، واستيضاح خواجه ، وبالفعل .. كانت وحدة الغار بداية الطريق . ففيه بدأت الرؤيا الصادقة ، وفيه نزل الروح الأمين بالقرآن على قلب محمد ليكون من المرسلين .

أخذت آيات القرآن تتوالى ؛ فكانت الإجابة الشافية لكل ما جاش فى صدره من خواطر ، وفتح الرسول عينيه على هذا البيان الهابط من أرفع سموات ، فإذا به ينقذه من حيرته ، ويحيب على أسئلته ، ويؤيد وجهة نظره فى الحياة والأشياء . أليس محمد كان ينأى عن الأصنام ؟ لقد نزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام . أليس محمد كان يشيح عن العصية الحمقاء ، والتعالى بالأنساب ؟ لقد نزل بيان السماء بأن الناس من أصل واحد من ذكر وأنثى . إن العناية التى استخلصته لرسالة السماء ، قد طبعت بطابع السماء ، حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفساً ظامئة وقلباً تائقاً ، وروحاً متطلعاً ، فروى الظمأ وشفى الغليل . وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾^(١) . إن الحيرة التى توزعت نفس الرسول قبل البعثة ، كانت الاستعداد الطيب من التلميذ المخلص لتلقى تعاليم الأستاذ المرشد . وما هو ذا الأستاذ الحكيم يحيب عن كل سؤال ، ويرشد إلى الطريق الأمثل : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ تَلْمِظُ لَهُمْ ۖ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾^(٢) .

كان التلميذ المعتزل يرى دورات الليل والنهار ، وارتفاع السماء ، وانبساط الأرض ، وتفجير الأنهار ، وإرسال الرياح ، ونهوض الجبال ، وإجراء الرزق ، وبدء الخلق ، فيتساءل متلهفًا : أتم ذلك بدون مبدع ؟ أقامت به الأصنام الصم ؟ فتأتى إجابة الأستاذ دقيقة صريحة بمثل قول الله : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴾^(٣) . أَمِنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ

(١) سورة الضحى : ٧ .

(٢) سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩ .

تَنْبِتُوا شَجَرَهَا^١ أَعْلَهُ^٢ مَعَ اللَّهِ^٣ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَرًا^٤ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ^٥ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا^٦ أَعْلَهُ^٧ مَعَ
اللَّهِ^٨ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ أَمَّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ^٩ الْأَرْضِ^{١٠} أَعْلَهُ^{١١} مَعَ اللَّهِ^{١٢} قَلِيلًا^{١٣} مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ أَمَّنْ
يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا^{١٤} بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ^{١٥}
أَعْلَهُ^{١٦} مَعَ اللَّهِ^{١٧} تَعَلَّى^{١٨} اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^{١٩} أَعْلَهُ^{٢٠} مَعَ اللَّهِ^{٢١} قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٥﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ^{٢٢} وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ﴿٦﴾^(١)

وكان التلميذ المتأمل يرى الفجرة من الأعراب : يسرقون ويقتلون ويعيثون في
الأرض فساداً ثم يموتون كما يموت الأبرياء الصالحون دون عقاب رادع ، أو جزاء
منصف ، فيتعاضده أن يتساوى البر والفاجر في العاقبة . ويتساءل ألا يقوم هؤلاء
ليوم ينتصف فيه المظلوم من الظالم ؟ وهل خلق الخلق سدى ؟ فما هذه الدنيا إلا
لعب وهو ، وما يهلكنا إلا الدهر كما يزعم معاصرون ؟ إن أحاسيس أعماقه الدفينة
بما برأها الله من إلهام نبوي لا تقر ذلك ، ولكنه يتطلع متسائلاً في حيرته يريد التأكد
والتثبيت ، فيأتيه الأستاذ بالبلسم الشافي حين ينزل عليه جبريل بمثل قول الله :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ^{٢٣} سُبْحَنَهُ^{٢٤} وَتَعَلَّى^{٢٥} عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧﴾ وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ^{٢٦} ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ
أُخْرَى^{٢٧} فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ

وَجَاءَ بِالنَّبِيِّ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٩﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٠﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧١﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِّنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٢﴾ .

وكان التلميذ المتطلع ينكر في أعماقه ما اشتهر في زمانه من وأد البنات ، وإظهار الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ويريد أن يعلن حق اليتيم في العون والرعاية ، وحفظ المال ، وينفر من يطففون الكيل والميزان ، ويحب العدل والقسط ، وينفر من الربا ، ويراه ابتزازاً دنيئاً . ثم ينظر فإذا الجاهلية مطبقة على غير ما يعتقد . يتطلع إلى من يشد أزره في إصلاح يقوم به كما أسرع من قبل إلى الانضمام في حلف الفضول ، ولكن الساء التي أهتمته ذلك ، ترسل آياتها المفصحة بمثل قول الله :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسِنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا

أَلْفَوْحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٣﴾ .

وبمثل قول الله من آيات محكمة :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۚ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَتِ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ .

ثم يكون التلميذ الحريص في حاجة إلى معرفة أحوال الأمم الغابرة ، والعصور الخالية ليضرب لقومه المثل ، وليأخذ لنفسه الأسوة ، فينزل عليه القرآن بقصص فرعون وهامان ، وقارون وأقوام نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ويوسف وغيرهم من المرسلين : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٣) . ويلزم قومه الحجة بمثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ

(١) سورة الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) سورة يوسف : ١١١ .

لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ ^(١) . ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ^(٢) ۖ ﴾ ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ ^(٣) ثم يرد شبهتهم المفتراة ، إذ يقول عمن عزوا إليه تعليم الرسول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ^(٤) ۖ ﴾ .

لقد أسهبنا بعض الشيء في الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم ؛ لنعلن أن هذا الكتاب المبين قد ملأ حياة الرسول ، وشغل عقله وقلبه ، وأورثه الحكمة والحجة والبيان ، ولم أراع التدرج الزمني في الاستشهاد بآيات القرآن ، بدءاً ونهاية لأنني في هذا المجال لا أرصد خطوات التشريع خطوة خطوة ، فأين مراقبها في سلم الحياة النبوية ، فذلك شأن علماء التشريع ، إنما أختار نصوصاً قرآنية توضح أستاذية القرآن ، ولئن شاركتها كل نصوص القرآن في الأستاذية والتوجيه فلسست في مجال الاختيار والتفضيل ، وكل كلام الله جيد مختار ، ولكنني أستشهد بما يفد على الذهن ويسد حاجة البحث ، وإن شابهه سواه .

لقد روى أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله : لقد طفت في قبائل العرب ، فما وجدت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أدبني ربي ، فأحسن تأديبي » إن بعض الشراح يميلون بكلمة الأدب في سؤال أبي بكر ورد الرسول إلى المعنى الخلقى . ولكنني أجد السياق صريحاً ينطق بأنها تخص المعنى الأدبي ، وإلا فما معنى قوله فما رأيت أفصح منك . والفصاحة هنا فصاحة المنطق بشقيه من اللفظ والمعنى ، إذ إن بعض البسطاء يتصورون الفصاحة خلاصة لفظ ، وشقشقة بيان ، لئن تصورنا ذلك لدى بعض خطباء الجاهلية ممن وفدوا على

(١) سورة آل عمران : ٤٤ .

(٢) سورة القصص : ٤٦ .

(٣) سورة هود : ٤٩ .

(٤) سورة النحل : ١٠٣ .

(كسرى) باختيار (النعمان) ، فلن نتصوره إطلاقاً في فصاحة رسول الله ، إذ إنها فصاحة العاقل المكين الذى أرشده القرآن ، وأفرغ عليه آلاف المعانى ، وفتح أمامه أبواب الإقناع والسداد ، فإذا تكلم فعن رصيد ضخمة من التفكير الثاقب والمعرفة الغزيرة والدراية الكونية والتاريخية والفقهية ، مما بسطه محكم الذكر الحميد . ومن هنا .. كان تعبير رسول الله دسماً بمعناه مشرقاً بلفظه ، وتتابع المعانى وتسلسلها لدى البليغ المطبوع يجبر الألفاظ المنتقاة جبراً ، ويسوقها مساقاً هادئاً كى تأخذ مكانها الطبيعي دون نشاز ، وما ضلّت الألفاظ لدى بعض الناس وصارت موضع اللجاج والجدل ، إلا لأنها لم تأخذ مكانها المحدد ، ولم تفصل على المعنى المراد أحكم تفصيل .

ولقد كانت معانى محمد في إرشاداتها ربانية ، وكانت ألفاظه معرضاً رائعاً لمعانيه ، وإذا كان القرآن أستاذ معانيه ، فإن أثره عليه عظيم جليل .

على أن هذا الأستاذ - لم يتخل عن طبيعة المربى اليقظ في شىء . فكان يقسو عليه في بعض الأحيان قسوة الحريص محذراً مصمماً ، مخافة أن يجيد التلميذ عن الطريق ، فهو يقرعه بمثل قوله .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإِلَيْكَ لَتَفَتَرَى عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً ۚ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ۚ ﴾ (٧٦) إِذَا لَأَذْقَنَّكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ۚ ﴾ (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ۚ ﴾ (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ۚ ﴾ (١) . أما إذا حاد عن الأولى في شىء فهناك المحاسبة الصريحة تنطلق عالية مدوية لتقول :

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٦﴾ فَأَنُت لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكُبَ ﴿٨﴾ ۖ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَنُت عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١١﴾ ۖ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾^(١)، ولتقول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَن بَّالَغَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾^(٢).

تلك نماذج من محاسبة الأستاذ ومراقبته، وقد تركت أثرها القوي في نفس التلميذ؛ فكان يقرأ القرآن، أو يسمعه وجلاً حذراً متمعناً، عن (عبد الله ابن مسعود) رضى الله عنه قال:

قال لى النبى ﷺ: اقرأ على، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمع من غيـرى، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٣) قال: أمسك، فإذا عيناه تذرفان. رواه الشيخان^(٤)، ومع هذا الحرص البالغ في موضع المؤاخـذة، فقد كان الأستاذ مشيداً بتلميذه معدداً سجاياه، مشجعاً إياه، شأن المربي الناهض الذى يدفع أشباله المرموقين إلى الأوج، مترقباً غدهم البهيج، يقول الله تعالى - وما أكثر

(١) سورة عبس: ٥ - ١١.

(٢) سورة الأنعام: ٥٢ - ٥٤.

(٣) سورة النساء: ٤١.

(٤) «التاج»، ج ١، ص ٩٦.

ما قال عن نبيه: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝ ﴾^(١).

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَن أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ ﴾^(٢).

وقال: ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۝ ﴾^(٣). وكان مثنيًا أعظم الشاء حين قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾^(٤) لقد سئلت عائشة عن أخلاق الرسول، فقالت فيها قالت: « وكان خلقه القرآن ». أجل كان القرآن طمأنينة خاطره، ومصباح عقله، وملهم معانيه، ومحدد اتجاهه، ويا له من أستاذ!

* * *

(١) سورة الفتح: ١، ٢، ٣.

(٢) سورة الفتح: ١٠.

(٣) سورة الطور: ٤٨.

(٤) سورة القلم: ٤.